# الدراسات العربية لأديان الهند وفلسفاتها

## دراسات البيروني نموذجا

**د/مسعود حايفي**

**جامعة الأمير عبد القادر**

### تمهيد:

إنّ صلة العرب بالهند قديمة سبقت ظهور الإسلام، بحكم العلاقات التجارية التي أقامها التجار العرب مع الهنود، أما بداية الاتصال الثقافي الفعلي بين العرب و الهنود، فتعود إلى ما اصطلح عليه في التاريخ الإسلامي "فتح السند" الذي تم بفعل النشاط الكبير في مجال الفتوحات في العهد الأموي. لقد جهز والي الكوفة و البصرة الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد المالك حملة لفتح السند، لأنها كانت باب الهند الغني وقد جعل الحجاج بن يوسف قيادة الحملة لمحمد بن القاسم وهو قريبه.

كانت هذه الحملة، حلقة الاتصال الأولى بين الهنود و المسلمين اكتشف أثناءها الفاتحون ما عند الهنود من حضارة وتمدّن، كانت سببا لدهشتهم وإعجابهم، كما أن الهنود من جهتهم كانت لهم حركة معاكسة حيث وبعد مدة قصيرة، وصل علماء الهند إلى الكوفة و الشام وبغداد، كان بعضهم قد اعتنق الإسلام، وحمل معه إلى المسلمين نظريات فلسفية وأشياء من الطب و الكمياء و الفلك و الرياضيات.(1)

### ترجمة التراث الهندي في العصر العباسي:

شهدت العلاقات العربية الهندية ازدهارا كبيرا في العصر العباسي، ففي عهد الخليفة المنصور وصلت إلى بغداد وفود من علماء السند حاملة معها

كتابين :"البراهمانا سيدهارتا" sidharta brahman أي مايعرف عند العرب بـ"سند هند" وصل عام155هـ/771م. وفندا فلايكا fenda flyka المعروف بالعربية بأركند، ومؤلفه براهما غوبتا(مولود 596م) كما وصل إلى بغداد كتاب آخر هو أرهابهاتيا عرف بالعربية بأرجبهاد، وهذه الكتب كانت في علمي الفلك و الحساب.

وفي عهد الخليفة المنصور أيضا وصل إلى البلاد العربية واحد من أشهر الكتب الأدبية الهندية، وهو كتاب بنشا تانترا pancha tantra وهوأشهر مجموعة تتألف من حكايات وخرافات باللغة السنسكرتية، ويعتبره بعض الباحثين المصدر الرئيسي للقصص الخرافية في العالم وتعني كلمة بنشاتانترا "الأسفار الخمسة". وقد قام بجمع هذه الحكايات فشنو سار مايا في القرن الخامس ميلادي لتسلية أبناء أحد الملوك. وعدد كبير من حكايات الكتاب يعود إلى أوائل القرن الأول قبل الميلاد.(2)

يقول لويس رينو عن أصول هذه الحكايات:"**إنها تعود إلى الفيدا حيث يوجد بعض الأساطير على ألسنة الحيوانات، وإلى قصص خيالية من الأدب الشعبي**".((3)

ونجد في المهابهراتا نوعا من الحكايات و الأساطير على ألسنة الحيوانات، وهوعلى الأرجح المصدر الأول لبنشاتانترا. وقد حاول مؤلفو حكايات هذا الكتاب اقتفاء أثر حكايات المهابهارتا، كما يبدو أن حكايات البانشاتانترا هي من إنتاج جميع مناطق الهند.(4)

وكان هذا الكتاب قد نقل في فارس(إيران) إلى اللغة البهلوية -لغة فارس القديمة -في عهد الملك أنوشروان -ثم نقله عن البهلوية إلى العربية عبد

الله بن المقفع وذلك حوالي (133هـ -750م) ويبدو أن ابن المقفع استعار عنوان الكتاب "كليلة و دمنة" من عنوان الفصل الأول من البنشاتانترا كاراتا كاودا مناكا و هما اثنتان من بنات آوى . تدور حولهما قصص القسم الأول من الكتاب. (5)

و قد حاز هذا الكتاب شهرة واسعة ، و كانت الترجمة العربية له الجسر الذي عبر عليه إلى الآداب العالمية، الغربية منها بصفة خاصة.

لقد كان كتاب كليلة و دمنة لابن المقفع و لا يزال علامة أساسية في تاريخ الأدب العربي، ذلك أنه كان من أوائل النصوص النثرية المطولة في هذا الأدب ، كما أنه نوع أدبي يكاد يكون فريدا في عصره ، نوع يختلف عن المألوف في ذلك الزمن من الخطب و الرسائل ، فالقصص على ألسنة الحيوان كانت أمرا جديدا استحسنه العرب، فصارت للكتاب شهرة واسعة في أرجاء الخلافة و قد كتب ابن الهبارية كتابا في نظم كليلة و دمنة ( شعرا) المعروف بـ: " نتائج الفطنة في نظم كليلة و دمنة"(6)، و ابن الهبارية شاعر بغدادي من القرن الخامس الهجري ( العاشر ميلادي ) ، و ليس هذا إلا دلالة على مدى أهمية هذا الكتاب و تأثيره في أدب العرب . و من اللغة العربية ترجم الكتاب إلى لغات عديدة كاليونانية في القرن الحادي عشر ، و قد ترجمه سيمون سيث، و عنها نقل في القرن الثاني عشر إلا السلافية القديمة ( البلغارية ) و عن الترجمة اليونانية أيضا نقل النص العربي إلى اللاتنية و الإيطالية في أزمنة متأخرة ثم ترجم إلى اللغة الألمانية في القرن الثامن عشر.

هذا التوسع في عرض دور و أهمية كليلة و دمنة، غايته إبراز ما كان لترجمة كتب التراث الهندي السنسكريتية من أثر في ثقافة العرب و آدابهم.

و نختم عرضنا لكليلة و دمنة، بملاحظة للبيروني على ترجمة ابن المقفع يقول فيها: " و بودي لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب (بنج تنتر ) و هو المعروف عندنا بكتاب كليلة و دمنة، فإنه تردد بين الفارسية و الهندية ثم العربية و الفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب بروزيه فيه قاصدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين. و كسرهم للدعوة إلى مذهب المانوية، و إذا كان متهما فيما زاد، لم يخل عن مثله فيما نقل ".(7) و معلوم أن ابن المقفع من أصل فارسي مانوي.

## كتاب بوذا سف و كتب أخرى:

يذكر ابن النديم في الفهرست مع كليلة و دمنة كتابين آخرين هما كتاب "بوذاسف" و آخر شبيه به و هو" بلوهر "و هما من الكتب الهندية. و في رأي العلامة السيد الندوي،أن كتاب "بوذا سف"لا يقل أهمية و خطورة عن "كليلة ودمنة"، بل يفوقهاأحيانا. (8)

و أصل " بوذا سف " في اللغة الهندية،" بودي ستو " و أصل " بلوهر" "بلوهير " أي حياة بوذا و تاريخه و جهاده. و قد كان لهذين الكتابين دور هام في الفكر العربي في القرون التالية. كما ترجما من العربية إلى لغات أخرى، و أعجب كثير من الطوائف بكتاب بوذا سف فنسبه المسيحيون إليهم. كما زعمت طائفة من الشيعة أنه لواحد من أئمتهم.

و قد امتزجت أفكار بوذاسف بأفكار بعض النحل الإسلامية و على رأسها النظامية من المعتزلة. و ذكر البغدادي في الفرق بين الفرق، إن إبراهيم النظام قد عاشر قوما من الوثنية و قوما من السمنية (البوذية ) القائلين بتكافؤ الأدلة.

## ترجمة الكتب الهندية في عصر الرشيد و المأمون:

و في عهد الخليفة هارون الرشيد (170 – 193 هـ / 786 – 808 م)، شهد التبادل الثقافي العربي الهندي موجة جديدة من مؤثرات العلوم الهندية فجاء دور الطب و الصيدلة، نشير هنا إلى أن عائلة البرامكة، وزراء هارون الرشيد المشهورين كانوا من البوذيين الإيرانيين الذين اهتدوا إلى الإسلام(9) و كلمة برمك، تعني بحسب سخاو Paramaka أي العظيم أو الكبير.

و قد كان أحد أجداد البرامكة كبير موظفي الشاه الفارسي في مدينة نوبيهارالإيرانية، و قد أرسل البرامكة عددا من العلماء إلى الهند لدراسة الطب و الصيدلة، كما استقدموا عددا من الأطباء و العلماء الهنود إلى بغداد. و يذكر ابن أبي أصيبعة، عددا منهم في طبقات الأطباء، مثل الطبيب منكه الذي نجح في شفاء الخليفة الرشيد بعد أن عجز أطباؤه عن ذلك، فأجزل له الخليفة العطاء، و عهد إليه ترجمة عدد من الكتب السنسكريتية إلى العربية بمساعدة ابن رحن، و صالح بن بهلة الهندي الذي نجح في شفاء عم الخليفة بعد أن شارف على الموت. و لم تقتصر الكتب المترجمة على مواضيع الطب و الصيدلة، بل تعدتها إلى الفلك و التنجيم و الفلسفة و غيرها.

و من بين الكتب الطبية الهندية التي ترجمت إلى العربية (شركا ) و هو من أهم كتب الطب الهندي، و قد نقل إلى العربية أيضا، كتاب يعالج أمراض النساء، وضعته طبيبة هندية اسمها روزا.(10)

و هكذا ففي منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع ميلادي كان قد غدا في متناول الكتاب و الأطباء العرب أكثر المؤلفات الهندية الطبية، و هذه الترجمات التي يذكرها ابن النديم في الفهرست قد ضاع أكثرها. و أهم ما يبقى

لنا من الأيورقيدا أو الطب الهندي في العربية، هو ما أورده علي بن زبن الطبري، أستاذ الطبيب و الفيلسوف الشهير أبي زكريا الرازي، في كتابه " فردوس الحكمة " من تلخيص لنظام الطب الهندي بكامله. و قد انتهى الطبري من تأليف كتابه في سنة (246هـ/ 850 م)، و قد طبع هذا الكتاب في برلين/ألمانيا مطلع القرن العشرين. و يعتمد تلخيص الطبري على شراكا و سسروتا و نيدانا و اشتنغرادايا. و أشار الرازي في موسوعته الطبية الضخمة " الحاوي " إلى المؤلفات الطبية الهندية و استشهد بها.

## ألف ليلة و ليلة و الأصول الهندية:

من أهم ما استفادت منه الثقافة العربية من الكتب الهندية، و نقل منها إلى كثير من لغات العالم كتاب ألف ليلة و ليلة، هذا الكتاب الذي سيكون له أثر غاية في الأهمية في الآداب الغربية كلها و معظم قصص ألف ليلة و ليلة، و التي يبلغ عددها في النص العربي 264 قصة، من أصل هندي، و يعود إطارها العام كذلك و العناصر الأساسية فيها إلى البيئة الهندية .(11)

و نجد في ألف ليلة و ليلة أن قصة " الشقيق الخامس للحلاق "وامرأة التاجر و البغاء، و ابن الملك والجنية، و الفقيروسمنه، و القنفذ والحمامة وغيرها من قصص ألف ليلة و ليلة، كانت معروفة منذ القدم عند الهنود، و حتى كتاب السند باد الذي ضم فيما بعد إلى ألف ليلة و ليلة، يقول المسعودي في مروج الذهب، إنه مترجم عن الهندية.(12)

نذكر هنا، أن القاص العربي في ألف ليلة و ليلة، قد نقل القصص ذات الأصل الهندي من بيئتها، ووضعها في بيئة عربية. و غير حتى أسماء الأماكن و الأشخاص واضعا مكانهما أسماء عربية مثل هارون الرشيد.

و من بين هذه القصص المنتقلة من الهند إلى أوربا عبر العرب يورد الباحث إسماعيل العربي قصة "العذراء و الوحش" « La belle et la bête » و قصة لافونتان "الفتاة و جرة الحليب" ، و قد أثبت ماكس موللر أن أصلها هندي، و حكاية الذئب الذي كان يشرب من أعلى الجدول بينما الحمل يشرب من أسفله، هذه القصص برأيه انتقلت من الهند.(13)

## نقل المهابهاراتا

تجدر الإشارة إلى أنه قد انتقلت إلى العربية أيضا أجزاء من الملحمة الهندية الكبرى مهابهاراتا. بدأ بنقلها أبو صالح بن شعيب، و نقل أجزاء أخرى بعده أبو الحسن علي الجبلي ( حوالي سنة 427هـ /1026 م). (14)و ثمة مؤلفات أخلاقية من وضع كانا كنا، و قد عرف بالعربية بشانق، و هيتوبادسا، و مؤلفات أخرى في المنطق و السحر، نقلت من السنسكرتية إلى العربية.

## الأثر الهندي في أعمال الخليل بن أحمد:

نشير أيضا إلى الأثر الهندي في أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي ( 175هـ / 791م ) فمعجم العين الذي وضعه الخليل، و هو من أول المعاجم العربية، يقول عنه شوقي ضيف " و قد وضع الخليل معجما للعربية بترتيب مخارج الحروف متأثرا بالهنود في ترتيب حروف لغتهم ".(15)و مما يعزز هذا الرأي أن الخليل قد قسم في كتابه العين، الحروف الهجائية إلى مجموعات صوتية بدأها بحروف الحلق و ختمها بالحروف الشفوية.و هذا الترتيب قد وافق في بعض الوجوه ترتيب حروف الهجاء في اللغة السنسكريتية. و قد أشار إلى هذا الرأي جرجي زيدان، في تاريخ الآداب العربية. و كاتب مقال الخليل بن أحمد في دائرة المعارف الإسلامية.(16)و لم يقتصر الأثر الهندي في أعمال

الخليل على معجمه، بل قد يكون تعداه إلى علم العروض، يقول البيروني في تحقيق ما للهند" و ليعرف أن الخليل بن أحمد كان موفقا في الإقتضابات، و إن كان ممكنا أن يكون قد سمع أن للهند موازين في الأشعار كما ظن به بعض الناس ".(17)

وهذا يعني أن معاصري البيروني وسابقيه ، كانوا يعتقدون بتأثر الخليل بن أحمد في علم العروض بموازين الشعر الهندي .

## غرائب الهند و انعكاسها في الكتب العربية

أضحت الهند وما فيها من غرائب وعجائب موضوعا هاما للكتب الأدبية التي ظهرت في العصر العباسي الأول . ونرى هذه الظاهرة واضحة في كتب الجاحظ . فقد احتلت الهند مكانا بارزا في كتابه الحيوان . فهو مثلا يذكر الكركدن ، الحمار الهندي في مواضيع عديدة . ويورد الكثير من الأخبار و الأساطير حوله. كما يذكر سائر الحيوانات التي اشتهرت بها الهند ، كالفيل و الطاووس ، و الببغاء و الديك الهندي ... الخ

ويبدو أن الجاحظ كان يكن للهنود احتراما كبيرا. فهو يورد أفكارهم ولا يجرؤ أن يشك فيها . وقد اعتبر الجاحظ الهند في كتابه (( البيان و التبيين)) من بين الأمم الأربعة الأكثر حضارة و ذلك مع العرب ، الفرس، و اليونان.(18) وهذا دليل علي ما كانت تتمتع به الثقافة الهندية من شهرة واحترام في العصر العباسي الذهبي.

## ضعف التبادل مع الهند بعد عصر الرشيد و المأمون :

في القرون التالية لعهود الرشيد والمأمون و المعتصم ، رحل عدد من العلماء المسلمين إلى الهند ، طلبا للعلم ، ولكن مع ضعف الدولة العباسية ومع

النصف الثاني للقرن الثامن للميلاد استقلت السند و غيرها من المناطق البعيدة عن الخلافة في بغداد ، فضعفت بذلك الاتصالات الثقافية بين الهند وبغداد ، و اتجهت الآداب العربية إلي مصادر أخرى غير المصادر الهندية .وتوقف الكلام عن الحضور العلمي الهندي في بغداد ، كما ضعفت حركة الترجمة من السنسكرتية حتى تلاشت، ولم يبق من هذه الحقبة الهندية –العربية السابقة للحقبة اليونانية في الثقافةالإسلامية العربية، سوى عدد من عناوين الكتب، وكثير من هذه العناوين يصعب على الباحث معرفة هويته .(19)

ولكن ، وبحسب ساداتي وغيره من الباحثين ، فقد وصلت الدراسات الهندية عند العرب ، إلى ذروتها مع البيروني (20) ، فهو قمة الدراسات الهندية في القرون الوسطى، في الشرق و الغرب على السواء .(21)

ونختم برأي للباحث الغربيhavell و إن كان علي شئ من المغالاة جاء فيه : "لقد تركت الهند ، أكثر من اليونان ، بصماتها على الثقافة العربية الفتية ، فقد علمتها الفلسفة، وألهمت أهم تعابيرها في الفن و الأدب و العمارة."(22)

## البيروني دراساته لأديان الهند و ترجماته

## كتب العرب عن أديان الهند قبل البيروني

عرضنا فيما سبق لحركة ترجمة الكتب الهندية عند العرب ، قبل عصر البيروني ، والآن نعرض لإسهامات البيروني في هذا المجال، والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين :الأول ترجمة الكتب من السنسكرتية الى العربية ،و الثاني دراسة عن أديان الهند و علومها . لذا نرى إكمالا للفائدة أن نمهد لحديثنا عن البيروني ، بذكر من سبقه ، عند العرب ،في الكتابة عن أديان الهند ممّا يمكّننا من وضع انجازات البيروني في نصابها.

أول كتاب ، في ملل الهند ، وضعه رجل بعثه يحي بن خالد البرمكي إلى الهند، ليأتيه بعقاقير هندية ، ويكتب له في أديانهم ، وقد سبقت الإشارة إلى بعثات البرامكه إلي الهند ، وأصولهم البوذية . وقد تحدث ابن النديم عن هذا الكتاب ذاكرا أنّه رآه بخط الكندي الفيلسوف المعروف ونقل ابن خرداذبة قسم منه في كتاب "المسالك" الموضوع سنة( 230هـ)وعن ابن خرداذبة نقل محمد بن احمد الجبهاني ، وكان وزيرا لأحمد بن نصر الأمير الساماني (279/260 هـ)، في كتابة الضخم " المسالك والممالك" . ولكن مجلدات هذا الكتاب السبعة ضاعت بأكملها ولم يبق من الكتاب سوى ما نقله ابن طاهر المقدسي في كتابه" البدء و التاريخ".

وقد كان الجبهاني ، كما يذكر ريتر، مولعا بجمع أخبار الملل غير الإسلامية من الترك و الصين و الهند ويكتب إلي بلاد الروم و الصين و الهند يسأل عن عادات تلك الأصقاع ، كما يجمع الأجانب القادمين من تلك البلاد و يسألهم عنها ويدون كل ذلك في كتابه.(23)

وأتى بعده محمد بن شداد بن عيسى المعروف بزرقان، ووضع كتاب "المقالات". وزرقان هذا كان معتزليا وتلميذا للنظام ، توفي أواسط المائة الثالثة هـ. ولكن كتابه ضاع هو الآخر . وقد ذكر البيروني هذا الكتاب في مقدمة ما للهند . ومن رجال المائة الثالثة الذين كتبوا في أديان الهند، أبو العباس الايرانشهري و هو أستاذ الطبيب و الفيلسوف المشهور محمد بن زكريا الرازي. توفي الايرانشهري سنة ( 313هـ/925م) وقد ذكره البيروني في مقدمة كتابه، و أثنى على تجرده في الكلام عن النصارى و اليهود . و انتقد كلامه عن أديان الهند بقوله ،" وحين بلغ فرقة الهند و السمنية-البوذية- صاف سهمه عن الهدف ، وطاش في أخره إلى كتاب بزرقان ونسب ما فيه إلي كتابه.(24)

وجاء بعد هؤلاء البيروني فتفوق على متقدّميه بسعة معلوماته،ودقة نظره ،وعمق بحثه، وبطريقة علمية لم يسبق إليها، وبعودته إلى النصوص و المصادر في لغتها السنسكريتية الأصلية ، وترجمة قسم منها.

## من هو أبو الريحان البيروني

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني من عائلة فارسية عام (365هـ/ 973م) وذلك في قرية من ضواحي خوارزم تدعى كات وتعرف اليوم بكيبفا في تركستان. (25)

ويقول هو عن نفسه إنه لايعرف شيئا عن آبائه : يجهل أباه وجدّه . أمّا نسبة البيروني فالبعض يعيدها إلى بيرون مدينة هندية عاش فيها، و البعض يعيدها إلى براني و تعني الغريب بالفارسية.

قضى البيروني القسم الأكبر من حياته خارج وطنه ، متنقلا في بلاطات عدد من الأمراء ، أولهم الشاه أبو العباس( ت 385ه /995م) في خوارزم ،ثم شمس المعالي (338هـ/998م) في جرجان، وعاد بعد خمس عشرة سنة إلى خوارزم في بلاط الأمير أبي الحسن علي بن مأمون (408هـ/1017) الذي أولاه وظائف علمية و سياسية هامة ، ولكن الأمير محمود سلطان غزنة، وهي اليوم مدينة في أفغانستان غزا خوارزم واقتاد علماء البلاط أسرى إلى غزنة.وتحول البيروني إلى عالم الفلك في بلاط السلطان محمود واصطحبه هذا الأخير معه في غزواته، أهمها تلك التي قام بها في الهند.

وقد كانت الهند أهم اكتشاف في حياة البيروني (26) فالتقى علماءها وتعمق في لغتها وعاش فيها أكثر من عشرين سنة قضاها في البحث و الإطلاع على الكتب فترجم عددا منها من اللغة السنسكرتية إلى العربية كماترجم إلى

اللغة السنسكرتية عددا من الكتب العربية.

وقد بلغ عدد مؤلفات البيروني180 كتابا ضاع اكثرها، و أهم ما وصلنا منها: الآثار الباقية عن القرون الخالية، وهو أول كتبه، كتاب مقاليد علم الهيئة، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، كتاب الصيدلية في الطب، كتاب القانون المسعودي في ثلاثة أجزاء وهو موسوعة في علم الفلك أما كتبه عن الهند فقد وصلنا اثنان:

- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة.
- وكتاب باتنجل وهو ترجمة لليوغا سوترا.

### **كتاب تحقيق ما للهند**:

وهو كتاب ضخم يتألف من ثمانين فصلا أشبه بدائرة معارف هندية في عصره، إذ شملت مواضيعه ديانة الهند وآدابها وشعرها وعادات أهلها وجغرافيتها وعلومها من رياضيات وفلك وتقاليدها الدينية وطبقات شعبها وأعيادها إلى غيره من المواضيع، وضع البيروني هذا الكتاب بين عامي(420-421هـ/1030-1031م) باللغة العربية. وقصد العرض الحيادي أو بحسب تعبيره: "وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاك غير منتقد."(27) لذا يخلو الكتاب ممّا عرفته كتب ذلك العصر من تحامل ونقد، فبحسب البيروني: "ليس الكتاب كتاب حجاج و جدل حتى استعمل فيه بإيراد صحيح الخصوم ومناقضة الزائغ عن الحق، وإنّما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه." وبلغ حياد البيروني درجة يقول فيها العالم ادوارد سخاو. "إنّك تقرأ بعناية صفحات عديدة من الكتاب دون أن يتبادر إلى ذهنك أنّ الكاتب مسلم وليس بهندوسي".(28)

ويقول في ذلك الباحث الأمريكي ايمبريك يتقدم البيروني نحو فهم

للاختلافات الثقافية...ويعرض عقائد الهنود تاركا الهندوسيين يتكلمون عنها بأنفسهم وبتعبيرهم الخاص".

وهكذا فموضوعية كتاب البيروني حدث استثنائي في عصره ومنهج قل من سار عليه في العصور الوسطى من أهل الشرق و الغرب، ودراسته للسنسكريتية لمجرْد الرجوع إلى النصوص الأصلية،ظاهرة فريدة في زمنه،فنحن نعلم اليوم مثلا أن ابن سينا وابن رشد كانا يجهلان تماما لغة أرسطو و جالينوس. وهكذا فإن البيروني،بحسب تعبير سخاو يبدو من هذه الناحية ظاهرة في تاريخ الحضارة"(29)

و لكن ماذا تضمن هذا الكتاب من ترجمات عن السنسكرتية ، و ما هي قيمتها، و ما هي مصادر الكتاب السنسكريتية.

## مصادر كتاب البيروني السنسكرتية:

يبدو تحقيق ما للهند غنيا بالمصادر السنسكريتية ، فالبيروني يستشهد بأكثر من عشرين كتابا من الأدب الفيدي، فيخصص الفصل الثاني عشر من الكتاب للفيدا والبورانا، يشرح تاريخ الفيدا، و يسمى جامعها قياسا ،كما يتكلم عن أقسام الفيدا الأربعة: ريك، ساما، ياجور، واتهارفافيدا. و يصف هذه الكتب، و يشرح كيفية استخدام الهنود لها . و في الياجورفيدا يتكلم عن كتاب شركا ونقله إلى العربية.

و يتحدث عن قوانين مانو Dharmashastra و ملحمة الرامايانا، و يتوسع في الكلام عن ملحمة المهابهارتا، فيخصها بصفحتين ذاكرا، على طريقته، المثل الهندي: ما ليس في المهابهارتا ليس في الهند، فيقول: " ما يوجد في غيره فهو لا محالة موجود فيه، و ليس كل ما فيه موجود في غيره".كما

يتحدث عن كتاب البنشاتانترا، و ينتقد ترجمة ابن المقفع لها.

و قبل أن نستعرض الكتب الثلاثة التي ترجم البيروني أقساما كبيرة منها، و ضمنها كتابه هذا نستطيع القول إنّ البيروني قد شرح أو على الأقل ذكر أكثر من 65 %من التراث الهندي الضخم، هذا عمل استثنائي، خاصة بالنسبة إلى قارئ البيروني الذي يجهل تماما هذه الثقافة. (30)

## الكتب الهندية الأساسية في تحقيق ما للهند:

في الفصول التي تختص بالفلسفة و الديانة الهندية، يورد البيروني و يترجم مقاطع عديدة من كتب ثلاثة من الأدب الفيدي . البهغفاد غيتا، اليوغا سوترا لباتنجل، و كتاب السنخيا.و سنحاول هنا أن نعرض لترجمات البيروني لهذه الكتب.

### 1- البهغفاد غيتا

الغيتا التي يشير إليها البيروني كقسم من البهاراتا (مهابهارتا) تظهر في كتاب الهند كحوار بين بسدية ( كرشنا) و أرجونا ، ولكن هل تتطابق مع الغيتا التي نعرفها اليوم.

إنّ مقاطع الغيتا عند البيروني يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، فبعضها يتطابق تماما مع نص الغيتا الحالية، و قسم ثان يتشابه أفكاره مع الغيتا، و لكنه يبتعد عنه من حيث التعبير، أما القسم الثالث فلا يمت بصلة إلى الغيتا. و قد كان إدوارد سخاو أول من أشار إلى هذا الأمر، و قدم تفسيرا لذلك ، يقول سخاو " يبدو أنّ البيروني قد استعمل رواية أو نسخة للغيتا لا تختلف عن الذي نعرفه اليوم، و هذه النسخة المحتملة يجب أن تكون أقدم من الحالية لأن

عناصر الغيتا المأخوذة من اليوغا غير متوفرة فيها، والنسخة المحتملة هي أيضا أكمل من الغيتا الحالية لأنها تتضمن عناصر أكثر منها: فكثيرة هي أجيال الحكماء الهنود التي غيرت و بدلت في هذا الكتاب، و هو أثمن جوهرة في الأدب الهندي، و من المدهش أن النسخة أو إحدى النسخ التي عرفت في زمن البيروني لم تصلنا".(31)

هل نستطيع الأخذ بنظرية سخاو؟ نكتفي بطرح السؤال . فالإجابة تتطلب جهدا كبيرا،و أيا يكن الجواب فالسؤال نفسه دليل على ما لكتاب الهند من أهمية في الدراسات الفيدية، و مؤشر لما قد يفتحه من آفاق جديدة لفهم واكتشاف الأدب الفيدي.

## 2-السنخيا

السنخيا هي النظام الثالث من أنظمة الفلسفة الهندية وهي الأقرب إلى نظام اليوغا الفلسفي، و واحدة من العناصر المؤلفة للغيتا.

و السنخيا، كما يستخدمه و يترجمه البيروني، كناية عن حوار بين معلم أو حكيم و تلميذه، و يتضمن عرضا لأصول الإنسان ووصف لكل الكائنات المخلوقة. وبالمقارنة بين سنخيا البيروني و سنخيا كاريكا Kareka و هو الكتاب الأساسي للسنخيا، نجد أن التعليمين لهما المحتوى عينه، و لكننا نلاحظ أن القصص و الأمثال التي ترد في سنخيا البيروني هي أكثر تفصيلا منها في السنخيا كاريكا. فهل توسع فيها البيروني استنادا إلى كتاب آخر أخذ عنه السنخيا كاريكا أيضا؟ أم أخذ ذلك عن تقليد شفهي؟ هذا سؤال يتطلب أيضا جهودا مكثفة للإجابة عليه. جدير بالذكر أن البيروني كان قد ترجم كتاب سانك ( سنخيا)كاملا إلى العربية، و أشار إلى ذلك في مقدمة كتاب الهند، و لكن

ترجمته هذه ضاعت.

### 3-كتاب باتنجل

إذا كان كتاب سانك الذي ترجمه البيروني قد ضاع ، فكتاب باتنجل، أي اليوغا سوترا قد وجده المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون(32) الذي يقول عنه: " ترجم البيروني النص الكامل لليوغا سوترا و نشره بعنوان كتاب باتنجل الهندي في الخلاص من الأمثال ، و هو يورد مقاطع طويلة منه في تحقيق ما للهند" . و قد حقق هذا النص و نشره المستشرق الألماني هـ . ريتر ، يورد ريتر في مقدمة التحقيق عن أخصائي في الدراسات الهندية " أن ترجمة البيروني صحيحة في الأكثر و الغلط فيها قليل". (33) ونظرا لأن المتن الهندي هو سوترا، أي شديد الاختصار . و لا يفهم من دون شروح، فقد اضطر البيروني إلى مراجعة بعض الشروح، و لكنه خلط المتن بالشرح.

و تأتي ترجمة اليوغاسوترا للبيروني على شكل حوار بين السائل و المجيب، و تتناول المقاطع التي يوردها في كتاب الهند من هذه الترجمة غالبا موضوع الخلاص Moksha و موضوع التناسخ كما يتضمن الكتاب الذي يستخدمه البيروني أخبارا و أمثلة للتوضيح. و يورد البيروني في مقدمة كتاب باتنجل ، شيئا عن طريقته في الترجمة فيقول: " و لما قرئت علي حرفا حرفا،فأحطت بما فيها" (34)، مما يعني أنه كان يستخدم عالما هنديا أي بانديت pandit يقرأ عليه الكتاب يفسره له ثم يعمد البيروني إلى نقله.

وهذا ما يشرح استشهاد البيروني بما يسميه المفسر(35) وهو لا يذكر اسم الشارح إلا مرة واحدة في تحقيق ما للهند(ص227).وهو بلبهدر Balabhadra ولعله مصدر بقية الشروحات. أما غالبية الشروحات هذه التي ترد في تحقيق ما

للهند فليس لها طابع فلسفي.

وكتقديم لترجمات البيروني، نستطيع أن نخلص إلى أنه كان الأول الذي نقل في العالمين العربي الإسلامي، هذا الكم الهائل من المعطيات حول التقليد الهندي. فقد استشهد بأكثر من نصف الأدب السنسكريتي الكلاسيكي في كتاب الهند. و الإستشهادات التي يوردها من الكتب الثلاثة، تعطينا معلومات غاية في الأهمية وخاصة عن البهغفادغيتا، ونظرية سخاو، حول احتمال تغيير في هذا الكتاب انطلاقا من ترجمة البيروني، تظهر مدى أهمية كتاب الهند في الدراسات الفيدية، ليس فقط خارج الهند، بل وفي داخلها أيضا.

وقبل أن نختم بتقييم إنجازات البيروني، نعرض بإيجاز لنظرة البيروني إلى فلسفة الهند و أديانها.

## نظرة البيروني للهند فلسفات وأديانها:

كما أشرنا سابقا فإن عرض البيروني للنظرة الدينية في الهند، عرض حيادي و مبتكر ، و الكلام عنه يطول و يتجاوز إطار دراستنا هذه، و لكن لا بد من كلمة سريعة حول عرض البيروني لهذا الموضوع، لتكتمل الصورة حول كتابه تحقيق ما للهند ، و سنكتفي هنا بالإشارة إلى بعض خطوطها العريضة.

كان عرض أديان الهند الهدف الأول لتأليف كتاب البيروني ، على الرغم مما تضمنه هذا الكتاب من فصول طويلة في علم الفلك والحساب و سائر العلوم عندهم. و هذا ما يشير إليه في مقدمة كتابه حيث يقول: " و كان وقع المثال على أديان الهند و مذاهبهم. فأشرت إلى أن أكثرها مسطور في الكتب و هو منحول و بعضها عن بعض منقول و ملقوط مخلوط "(36).

فهذا الكتاب جاء كرد فعل على ما في الكتب التي سبقته من خلط و

كذب. و قد حدد البيروني لنفسه الهدف بعرض حيادي لعقائد الهند دون التدخل والنقد، و كان وفيا لعهده. و النقطة الأساسية التي انطلق منها في التمييز بين الخاصة والعامة، ذلك أن عدم التمييز بينهما سبب الكثير من سوء الفهم والافتراءات على عقائد الهند . وهذا التمييز والتضاد يظهر و يتكرر مع التأكيد عليه في كل الكتاب. فالعامة ليست مصدر الحقيقة، و لا هي معصومة من الخطأ، بل على العكس تماما، فهي مصدر كثير من الفهم الخاطئ و المتناقض للحقائق . و يعطي البيروني أمثلة على ذلك لتوضيح فكرته فيقول: " إن بعض خواصهم، يسمى الله تعالى نقطة ليبرئه بها عن صفات الأجسام. ثم يطالع ذلك و لا يبلغ به فهمه إلى تحقيق النقطة (...) فيقول إنه بطول اثني عشر اصبعا، في عرض عشرة أصابع "(37).

و هذا التمييز ليس حكرا على الهند ، فالبيروني يجده في كل الديانات بما فيها الإسلام فيقول:"كما يوجد في سائر الملل بل في الإسلام من التشبيه و الإجبار".(38)

ويمضي البيروني قدما في نظامه المقارن، فيطرح سياقا فكريا للخاصة أي لرجال الفكر في الهند مشابها لمفكري الإسلام.فيقول عن عقيدتهم في الله:

"واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، الحكيم الحي المحيي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته عن الأضداد و الأنداد، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء".(39)وبهذا التعبير يقدم البيروني التوحيد الهندي وتعابيره التي تذكر بأسماء الله الحسنى في القرآن، ويخلص في القول في الله عند الهنود:

"هذا قول خواصهم في الله المستغني الجواد، الذي يعطي ولا يأخذ، لأنهم

رأوا وحدته هي المحضة ووحدة ماسواه متكثرة".(40) فالتوحيد في عقيدة خاصة الهند أمر لاجدال فيه بحسب البيروني. ولا شك أن البيروني هو أول من عرض عقائد الهند في الإسلام كدين توحيدي وخرق حجب الظواهر التي تظهر عامة الشعب في الهند مشركين.

نكتفيْ بهذا القدر فغرضنا اعطاء فكرة عن منهجية البيروني،وأصالة عرضه لعقائد الهند،وجدة الرسالة التي يحملها كتابه وتوضيح خلفية ترجماته من اللغة السنسكريتية.ونختم هذا الفصل بتقييم عام لإنجازاته.

## تقييم لإنجازات ومساهمات البيروني:

يقول المستشرق الروسي روزن عن كتاب الهند:"انه أثر فريد في بابه لا مثيل له في الأدب العالمي القديم أو الوسيط سواء في الغرب أو الشرق".

ويقول المستشرق سخاو وهو معرب كتاب الهند:"إنّ كتاب البيروني فريد من نوعه في أدب الإسلام كدراسة قديمة لفكر المشركين".(41)ويضيف سخاو وقد قضى القسم الأكبر من حياته في دراسة البيروني وتحقيق كتبه وترجماتها إلى الألمانية و الإنكليزية:"يتطلب الأمر مجهود أجيال متلاحقة لتنصف البيروني الإنصاف الكامل".(42)

أماكوربان فيري من جهته أن كتاب الهند لامثيل له في الإسلام في ذلك العصر. وقد بقي مرجعاً لما كتب بعده عن الديانات و الفلسفات الهندية.(43)

ويطلق مؤرخ العلم جورج سارتون على الفترة التي تشمل منتصف القرن الحادي عشر في تاريخ العلم العالمي اسم عصر البيروني لأنه أكبر شخصية علمية عاشت في ذلك العصر.(44)

أما الباحث الأميركي أنسلي ت. أمبريك Ainslee T. Emberc فيقول مقيما ترجمات البيروني من السنسكريتية: " نلاحظ في كتاب الهند أن المؤلف يقدم ترجمة مباشرة من السنسكرتية لنصوص هامة توضح مواضيع فلسفية أساسية في الفكر الهندوسي، إنها المحاولة الجادة الأولى لنقل الفكر الهندي خارج حدوده، محاولة لن تتكرر إلا في القرن التاسع عشر.

لقد كان البيروني، بدراساته المقارنة بين التصوف، والفلسفة اليونانية، والعقائد الهندية، المحرك والمؤسس لما عرف، فيما بعد، بعلم الأديان المقارنة.

أما عن ترجماته فتكفي شهادة أمبريك على أنّها أولى الترجمات من السنسكريتية إلى لغة خارج الهند. و تبقى المحاولة الوحيدة منذ القرن الحادي عشر حتى القرن التاسع عشر أي أنها استمرت أكثر من ثمانية قرون دون مثيل لها. حتى استفاق الغرب لدراسة الأدب الفيدي.

## الهوامش:

---

[1]- Frederique Louis L inde De L islam Paris 1989 P25.

[2] _ يونس عبد الحميد:الأسفار الخمسة او البنجاتنترا،ترجمة ودراسة، الهيئة العامة للكتاب،القاهرة،1980،ص9.

[3]. رينو لويس: الأدب الهندي،ترجمة بهيج شعبان،دار بيروت،بيروت1955ص33.

[4]. نفس المرجع ص34..

[5]أحمد سيد مقبول:العلاقات العربية الهندية ،ترجمة نقولا زيادة،الدار المتحدة للنشر،بيروت 1974 ص38.

---

[6] ـابن الهبارية:نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة،تحقيق وتقديم حسن عاصي دار المواسم بيروت1995 ص11.

[7] . البيروني أبو الريحان: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة حيدر آباد- الهند-1958 ص123..

[8] . الندوي محمد إسماعيل: تاريخ الصلات بين الهند و البلاد العربية،دار الفتح بيروت-د.ت- ص89..

[9] . نفس المرجع ص89..

[10] أحمد سيد مقبول :مرجع سابق ص34.

[11] ـالعربي إسماعيل:الإسلام والتيارات الحضارية في شبه القارة الهندية، الدالا العربية للكتاب، طرابلس الغرب،1985 ص89.

[12] ـ أحمد سيد مقبول: مرجع سابق ص38-39.

[13] ـالعربي إسماعيل:الإسلام : مرجع سابق ص116-117.

[14] أحمد سيد مقبول: مرجع سابق ص 39..

[15] ـضيف شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي،دار المعارف،القاهرة1969 ص132.

[16] ـ الندوي محمد إسماعيل: مرجع سابق ص 114-115.

[17] . البيروني : مرجع سابق ص115.

[18] . ساداتي أحمد محمود:تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، مكتبة الآداب، القاهرة1975 ص73..

[19] . صليبا لويس الهندوسية وتأثيرها في الفكر الإسلامي،دار بابليون،باريس1995 ص13.

[20] . ساداتي أحمد محمود: مرجع سابق ص73.

---

[21] . صليبا لويس: مرجع سابق ص55.

[22] . نفس المرجع ص13.

[23] . ريتر هانس: كتاب باتنجل لأبي الريحان البيروني دراسة وتحقيق ضمن المنتقى من دراسات المستشرقين ،جمعها صلاح الدين المنجد،دار الكتاب الجديد، بيروت1976 ص61..

[24] . البيروني: مرجع سابق ص5.

[25] _ صليبا لويس: مرجع سابق ص19-20..

[26] . المرجع نفسه ص25.

[27] . البيروني: مرجع سابق ص19..

[28] . صليبا لويس: مرجع سابق ص60.

[29] _ نفس المرجع ص66

[30] _نفس المرجع ص86.

[31] _Sachau Edward Alberurni s account of India religion philosophy ..etc Kegan Paul London1910 P 226.

_32Massignon Louis Essai sur Les Origines Du Lexique Technique De La Mystique Musilmane Ed Vrin Paris 1968 p 97.

33_ ريتر هانس: مرجع سابق:ص 65.

34_البيروني: مرجع سابق ص191

35_ ريتر هانس: مرجع سابق:ص 66.

36_ البيروني :مرجع سابق ص4.

37_ نفس المرجع ص23.

---

38 _نفس المرجع ص23..

39_ نفس المرجع ص20..

40_ نفس المرجع ص23..

41_كراتشكو فسكي إغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين الهاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت1987 ص264...

42_رويمر هانس روبرت: ألمانيا والعالم العربي، دراسات ترجمها مصطفى ماهر، دار صادر، بيروت1974 ص162...

_43Corbin Hanri Histoire de la Philosophie Islamique Ed Gallimard Paris 1996 P 295.

44_ كراتشكوفسكي إغناطيوس: مرجع سابق ص264.